المحاضرة (٣)

(الفيلولوجيا ، فقه اللغة ، علم اللغة)

مصطلح الفيلولوجيا :

يترجم مصطلح الفيلولوجيا philology الى (علم دراسة النصوص القديمة) ، وهو مصطلح استخدم في اللغات الأوربية ، وهو مركب من كلمتين يونانيتين إحداهما philos وتعني : (حب) ، والثانية (logos) وتعني : كلام أو دراسة ، أي أن علم الفيلولوجيا يقوم على حب الكلام للتعمق في دراسته من حيث قواعده ،وأصوله ، وتاريخه. وقد استخدمت الكلمة في الانجليزية ابتداء من القرن الرابع عشر الميلادي بمعنى دراسة التراث القديم.

وقد تحدد مجال علم الفيلولوجي بمعناه الدقيق بتحقيق المخطوطات وإعدادها للنشر العلمي ، وفك رموز الكتابات القديمة ، وكل ما يتعلق بتقديم النصوص والنقوش القديمة على نحو يمكّن من القيام بأبحاث متخصصة فيها .

وهذا العمل العلمي مهم وجليل ؛ إذ تقوم عليه دراسات تاريخية , أو لغوية , أو أدبية ... الخ , ويعد علم الفيلولوجي بهذا المعنى أساساً لعلم اللغة ولغيره من العلوم التي تقوم على النصوص .

ويمكن أن يقال أن الفيلولوجيا تعني أمرين :

الاول / الدراسة المقارنة للغات

الثاني / تحقيق النصوص وشرحها

ففي نهاية القرن الثامن عشر اكتُشف أن اللغة السنسكريتية لغة الهند القديمة المقدسة لها علاقة لغوية باللاتينية وبلغات أخرى في أوربا ، إذ لوحظ وجود صلة وثيقة وتشابه في جذور الأفعال ، وفي الصيغ النحوية بين اليونانية واللاتينية وغيرهما من اللغات مما يؤكد أنها تتفرع من أصل مشترك لم يعد له وجود .

وفي نهاية القرن التاسع عشر توفرت للباحثين معلومات ليدركوا وجوه الشبه بين اللغات الكلاسيكية في أوربا والسنسكريتية .. ومن هذا التاريخ بدأ يظهر ما يسمى (الفيلولوجيا المقارنة) ، وكانت دراسة السنسكريتية وعلاقتها باللغات الأوربية تعتمد على النصوص المكتوبة ، ولهذا عكف الفيلولوجيون على تحقيق هذه النصوص وشرحها ،والمقارنة بينها .

وكان الأوربيون يرون ان نهضتهم تمثل انطلاقة جديدة لتراث اليونان والرومان في الفلسفة والقانون والدراسات اللغوية التي كتبت باليونانية واللاتينية ، فانصرفت الهمم الى دراستهما ونقد ما جاء فيهما من نصوص قديمة ، وأصبحت هذه الدراسات الشارحة والناقدة للنصوص القديمة باللغتين اليونانية واللاتينية تعرف باسم (الفيلولوجيا) .

وبناء على ذلك أصبح لفظ الفيلولوجيا يعني دراسة النصوص القديمة من حيث القاعدة ومعاني المفردات وما يتصل بذلك من شروح ونقد وإشارات تاريخية وجغرافية فضلا عن دراسة الأدب والحضارة ، وكان عنصر القدم من أهم العناصر التي يتكون منها معنى الفيلولوجيا .

ونظراً لأن دراسة النصوص القديمة التي كان معظمها ذا مكانة أدبية عالية يتطلب معارف كثيرة تتصل بتاريخ الشعب وثقافته , وبالعلوم والفنون التي يبتدعها وما الى ذلك , مما يساعد في توثيق النصوص وشرحها , فإن الفيلولوجي كان يدرس هذه الموضوعات أيضاً , ولهذا عرف عن الفيلولوجيا أنها تعني – فضلاً عما سبق - دراسة الأدب والحضارة .

ومن الباحثين من نظر الى مصطلح الفيلولوجيا نظرة ضيقة فجعله خاصاً بدرس قواعد الصرف , والنحو , ونقد نصوص الآثار الأدبية .

ومنهم من وسع من دائرته فذهب الى أنه لا يتضمن دراسة اللغة فقط ؛ ولكنه بحث عن الحياة العقلية من جميع وجوهها . وفي ضوء ذلك يمكن أن تتضمن الفيلولوجيا علم اللغة وفنونها المختلفة , كتاريخ اللغة , ومقابلة اللغات , والنحو , والصرف , والعروض , وعلوم البلاغة , وعلم الأدب في معناه الأوسع الذي يتضمن تاريخ الآداب , وتاريخ العلوم من حيث تصنيف الكتب العلمية , وتاريخ الفقه من حيث تدوينه في المجاميع والمجلات , وتاريخ الأديان من حيث دراسة الكتب المقدسة , وتأليف الكتب الدينية واللاهوتية , وتاريخ الفلسفة من حيث تأليف كتب الحكمة , وكتب الكلام .

وفي التفريق بين مجال علم اللغة والفيلولوجيا يقول ماريوباي :

(إن موضوع الفيلولوجيا لا يختص بدراسة اللغات فقط , ولكنه يجمع الى ذلك دراسات تشمل الثقافة , والتاريخ , والتقاليد , والنتاج الأدبي للغات موضوع الدراسة .

أما علم اللغة " Linguistics " فيركز على دراسة اللغة نفسها , ولكن مع إشارات عابرة أحياناً الى قيم ثقافية , وتاريخية . ويولي علم اللغة معظم اهتمامه الى اللغة المتكلمة , وإن كان يوجه كذلك شيئاً من الاهتمام الى اللغة المكتوبة) .

مصطلح (فقه اللغة) لدى القدماء :

جاء في المعجم :

الفاء والقاف والهاء أصل واحد صحيح يدل على إدراك الشيء والعلم به والفهم له ، تقول : فقهت الحديث أفقهه ، وأفقهتك الشيء إذا بينته لك ، ويقال : أوتي فلان فقهاً في الدين أي فهماً له ، وفقه فقهاً أي علم علماً ، وكل علم بشيءٍ فهو فقه ثم غلب على علم الدين والشريعة لسيادته وشرفه وفضله على سائر أنواع العلم ، فقيل لكل عالمٍ بالحلال والحرام فقيه ، وقال الله عز وجل : (ليتفقهوا في الدين) [التوبة ـ الآية ١٢٢] ، أي ليكونوا علماء به .

وقد ورد مصطلح (فقه اللغة) لدى القدماء ، فقد جاء عنواناً لكتابين هما :

كتاب : (الصاحبي في فقه اللغة العربية ومسائلها وسنن العرب في كلامها) لأحمد بن فارس

وكتاب : (فقه اللغة وسر العربية) للثعالبي

ويبدو من مضمون الكتابين أن مؤلفيهما أرادا بفقه اللغة المعنى اللغوي المعجمي ، وهو المعنى القائم على الفهم .

مصطلح (فقه اللغة) لدى المحدثين :

عرف الدكتور رمضان عبد التواب مصطلح (فقه اللغة) في العصر الحديث تعريفاً عاماً يجعله شاملاً لكل الدراسات اللغوية , يقول :

(يطلق مصطلح فقه اللغة عندنا الآن على العلم الذي يحاول الكشف عن أسرار اللغة , والوقوف على القوانين التي تسير عليها في حياتها , ومعرفة سر تطورها , ودراسة ظواهرها المختلفة دراسة تاريخية من جانب , ووصفية من جانب آخر .

وهو بهذا المعنى يضم كل الدراسات اللغوية التي تبحث في نشأة اللغة الإنسانية , واحتكاك اللغات المختلفة بعضها ببعض , ونشأة اللغة الفصحى واللهجات , وكذلك تلك التي تبحث في أصوات اللغة , ودلالة الألفاظ وبنيتها من النواحي التاريخية المقارنة , والنواحي الوصفية , وكذلك في العلاقات النحوية بين مفرداتها , كما تبحث أخيراً في أساليبها , واختلاف هذه الأساليب باختلاف فنونها من شعر ونثر وغير ذلك) ، ومن أبرز كتب فقه اللغة :

- **دراسات في فقه اللغة العربية , صبحي الصالح**
- **فقه اللغة , علي عبد الواحد وافي**
- **فقه اللغة , حاتم صالح الضامن**
- **فقه اللغة , عبد الحسين المبارك**
- **فصول في فقه العربية , رمضان عبد التواب**
- **فقه اللغة وخصائص العربية , محمد المبارك**
- **فقه اللغة في الكتب العربية , عبده الراجحي**
- **فقه اللغة العربية , كاصد ياسر الزيدي**
- **فقه اللغة العربية وخصائصها , إميل بديع يعقوب**

ويمكننا إجمال أبرز ما تضمنته هذه الكتب من موضوعات واختصت به بما يأتي :

- **نظريات نشأة اللغة الإنسانية**
- **الفصائل اللغوية وتوزيع اللغات في العالم**
- **اللهجات العربية القديمة**
- **الأصوات اللغوية والنظام الصوتي في العربية**
- **الظواهر اللغوية وأثرها في إثراء اللغة : كالترادف ، والتضاد ، والمشترك اللفظي ، والاشتقاق ، والنحت ، والمعرب والدخيل**
- **المعاجم العربية**
- **الخط العربي**
- **الفصحى والعامية**
- **ظاهرة الإعراب في اللغة العربية**
- **أساليب اللغة العربية**
- **قواعد تنظيم اللغة العربية (النحو والصرف)**

مصطلح (علم اللغة) لدى القدماء :

أطلق علماء العربية على الاشتغال بالمفردات اللغوية جمعاً وتأليفاً مصطلح (اللغة) ، فاللغة لديهم هي مجموع المفردات ومعرفة دلالاتها ، وبهذا المعنى كانت كتب الطبقات تميز بين المشتغلين بالنحو ، أو العربية من جانب ، والمشتغلين باللغة من جانبٍ آخر ، لذا عد سيبويه والمبرد من النحاة ، بينما عد الأصمعي وأقرانه من اللغويين .

وأصبح اللغوي هو الباحث في المفردات جمعاً وتصنيفاً وتأليفاً ، فالأصمعي لغوي لأنه جمع ألفاظ البدو وسجلها في رسائل لغوية مصنفة في موضوعات دلالية ، والخليل لغوي لأنه أول من حاول حصر الالفاظ العربية وتسجيلها في معجم ، وقد ظل استخدام كلمة (اللغة) بمعنى البحث في المفردات وتصنيفها في معاجم وكتب موضوعيةٍ سائداً في الدوائر العلمية عدة قرون .

أما مصطلح (علم اللغة) فقد استخدم عند بعض اللغويين المتأخرين ليدل على دراسة الألفاظ مع بحث دلالاتها ، وتصنيفها في معاجم وكتب ، ودراسة كل ما يتعلق باللغة من قضايا تساعد اللغوي على استنباط القواعد والقوانين العامة للغة .

وممن استخدم هذا المصطلح رضي الدين الإستراباذي في شرحه لكافية ابن الحاجب ، وأبو حيان الأندلسي في تفسيره (البحر المحيط) ، إذ ذكره في العلوم التي يحتاج إليها المفسر ، وأولها علم اللغة ، مشيراً الى أهم المعاجم وكتب اللغة وكتب الأفعال ليضمها تحت هذا العلم ، ووضع السيوطي كتابه المشهور : (المزهر في علوم اللغة وأنواعها) ، ذاكراً ومستقصياً فيه العلوم المتفرعة عن اللغة العربية .

مصطلح (علم اللغة) لدى المحدثين :

ترجم مصطلح **(Linguistics)** الى عدة ترجمات هي :

علم اللغة , علم اللغة الحديث , اللسانيات , الألسنية , اللغويات , الألسنيات , علم اللسان

وأشهر الترجمات هي **(علم اللغة , علم اللغة الحديث , اللسانيات)**

وقد اختار مجمع اللغة العربية في القاهرة وعدد من اللغويين المحدثين مصطلح (علم اللغة) ليكون عنواناً لكتبهم التي تناولت الدراسة اللغوية على وفق مناهجها الحديثة . وشاع استخدام مصطلح (الألسنية) في لبنان , كما شاع مصطلح (اللسانيات) في المغرب .

ويمكن تعريف علم اللغة الحديث بأنه العلم الذي يدرس اللغة أو اللهجة دراسة موضوعية غرضها الكشف عن خصائصها , وعن القوانين اللغوية التي تسير عليها في قواعدها الصوتية والصرفية والنحوية والدلالية والاشتقاقية , والكشف عن العلاقات التي تربط هذه الظواهر بعضها ببعض , وتربطها بالظواهر الاجتماعية وبالمجتمع والبيئة الجغرافية , ومعرفة ما عرض لها من تطور , وبيان القوانين التي تقف وراء هذا التطور , أو تقود إليه .

وهو يدرس كل أشكال اللغة ويركز اهتمامه على كل ما يرتبط بموهبة الكلام التي تميز الإنسان عمن سواه , مع السعي لفهم القوانين التي تخضع لها ولادة اللغة وحياتها وموتها , ويعنى بدراسة اللغات الميتة التي لا تتكلم بها أية جماعة بشرية الى جانب عنايته بدراسة اللغات الحية .

إن علم اللغة يبحث في اللغة بشكل عام , فهو يمثل دراسة شاملة للغة لاستخراج قوانينها الخاصة بها , ومعرفة تطورها , أما علم الصرف , والنحو , ومفردات اللغة , فليست إلا علوماً جزئية بالنسبة إليه .

وقد وضح دي سوسير موضوع علم اللغة وحدده حين قال :

(إن الهدف الحقيقي والوحيد لعلم اللغة هو أن تدرس اللغة في ذاتها ومن أجل ذاتها) .

ومعنى قوله هذا أن علم اللغة يدرس اللغة كما هي , وكما تظهر , فليس للباحث فيها أن يغير من طبيعتها ، فليس له أن يقتصر في بحثه على جوانب مستحسناً إياها , وينحي جوانب أخرى استهجاناً لها , أو استخفافاً بها , إذ يدرس علم اللغة الحديث اللغة دراسة علمية تستهدف الكشف عن حقيقتها واصفاً لها , ومحللاً إياها بطريقة موضوعية .

ولا يستغني علم اللغة عن الاستعانة بجملة من العلوم الأخرى كعلم الاجتماع , وهو أكثر العلوم غير اللغوية صلة باللغة , وكذلك علم النفس فإنه يدرسها على انها حادثة نفسية , ويستعين علم اللغة أيضاً بعلم الجغرافيا , وعلم التشريح , وعلم وظائف الأعضاء , وعلم الفيزياء .